ماذا اريد من الرواية؟

الاجابة السهلة، المباشرة عن هذا هو أن مفهومي للرواية هو أيضاً مفهومي للقصة القصيرة، وللعمل الفني ذاته، ولصورة خاصة ومتميزة من العمل الفني.. صورة تقترب اقتراباً بقدر الامكان من روح العصر، ومن خصائص المكان والزمان الذي نعيش فيه، في الوقت الذي تحتفظ فيه بامكانية تجاوز العصر والمكان. الرواية عمل متفرد ومتميز يجب، بالطبع، أن تتوفر له كل مقومات العمل الفني التي طالما اختلف الكتاب والنقاد والفنانون في توصيفها. ان شكلها ذاته يفرض عليها قيوداً صارمة.. وهذا القيد المفروض عليها من الشكل يمكن ان يتيح لها حرية لا تكاد تتوفر لفن أو لشكل آخر من أشكال الفنون. بمعنى ان الرواية، في ظني، هي اليوم الشكل الذي يمكن ان يحتوي على الشعر، وعلى الموسيقى وعلى اللمحات التشكيلية، بالاضافة الى ما يمكن، ولكنه ليس بالضرورة على أي حال، أن تحتوي عليه من خصائص الرواية التقليدية التي عرفناها منذ بداياتها. لست اظن ان الرواية يمكن ان تكون اليوم شيئاً «بلزكياً»، ولا يمكن أن تكتفي بكونها متابعة للشكل الذي عرفته الرواية في القرن التاسع عشر، الرواية يجب أن تكشف رؤية الكاتب تنظيماً مكثفاً.. ولكنه، أيضاً، ناقلاً وشديد الايحاء. وفي ما عدا هذا.. وفي ما عدا كونها الشكل الصارم المِطْوَاع معاً لابداع رؤية نافذة وعميقة.. بجانب هذا كله يجب ان تكون الرواية ، في ظني، عملاً حراً. والحرية هي من التيمات والموضوعات الاساسية، ومن الصبوات المحرقة اللاذعة التي تتسلل دائماً الى كل ما اكتب. الحرية المتحققة والمحبطة معاً. فاذا تناولنا المسألة بشكل تقني اكثر، قلت انني لا أتطلب من الرواية اليوم ان تكون واقعة سرد وحكاية، ولا ان تكون حاملاً لشعار أو لمغزى، ولكنها بلا شك شئت ام لم اشأ ستحمل دلالة. واذا كنت حسن الحظ، ستحمل قيمة عريضة او واسعة عن جانب من جوانب الحياة، ولا ان تكون كما يقال بالتعبير القالبي، شريحة من شرائح الحياة. اريدها ان تكون شيئاً تتوفر له الحرية الكاملة في داخل قيود يفرضها مضمونها ورؤيتها بنفسه على نفسه. أي ان تبتدع لنفسها حريتها وقانونها معاً.

.. يمكن ان تكون في الرواية دفقات من الشعر خالصة... لكن اظن انه يجب ان تحكم هذه الدفقة إطارات مِنَ النظام خفية ودقيقة، ولكنها موجودة. يمكن ان تكون في الرواية ايضاً صورة وجدانية من الفكر الخالص، هنا أيضاً اظن انه يجب ان يكون للفكر شعره الخاص، وقوامه القصصي. بمعنى آخر كما تستشف من كلامي، أترك للرواية، كما أترك لجميع الاعمال الفنية، حريتها الكاملة في أن تختط لنفسها الطريق الذي تُريد، وان تفترض بنفسها لنفسها القوانين المبدعة، هذا هو سرّ الابداع، ان تضع بنفسك القانون، وان تجد حريتك في داخل هذا القانون.

أرفض اذن الاطار التقليدي السردي، وأرفض قصة التسلية والطرافة، وأرفض قصة الشعار والهتاف مهما اتخذت لانفسها من اقنعة وأرفض ايضاً قصة الضياع في متاهات اللفظ لمجرد اللفظ، او التردي في حمأة المونولوج الداخلي الطرية الرخية دون صلابة.

أحب للرواية ان تقف مع ذلك على أرض الواقع - وهو غير الواقع الفوتغرافي الخارجي - واحب لها ان تتقطر فيها كثافة عالم بأكمله، ان لم يكن العالم باكمله.

اطمح ايضاً ان تكون للقصة لغتها التي يمتاز كل مقطع فيها ببراءة الخلق الاوليّ، ان تتمرّد على شبهة لقالب الا اذا استخدمت القالب نفسه ضِدّ القالب.

وانني لعميق الايمان - وعميق العشق ايضاً - بهذه اللغة التي ورثناها، ونكاد نبددها او نهملها. هذه اللغة العربية شديدة الغِنى، وصارمة الدّقة بارعة المدخل الى النفس وأظن أننا لا نكاد نعرف منها الا أطرافها.

أما الصبغة التقنية، فكما قلت لك من قبل اريدها حرّة الى مدى حدود الحرية، وليس للحرية حدود.. واريدها ايضاً صاحبة قانونها الخاص.. لا يهمني في شيء تصنيف التسميات، والمذاهب فليكن العمل الفني بعامة واقعياً، واذا شئت سريالياً او وجودياً او شيئاً، او رومانسياً، او ما احببت من تيارات، ومن تمازج بين التيارات بحدود تتسع او تضيق. لا ارفض على الكاتب شيئاً الا مسئولية كتابته، لكني اتطلب هذا السعي اللاعج الدائب الذي لا يتوقف ابداً نحو ما اسميه الحقيقة. هذا السعي هو الذي ندعوه بالصدق الفني. ولتكن الحقيقة ذات اقنعة سبعة ولكن كل قناع منها انما هو منسوب الى الحقيقة.. أي ان كل قناع منها فيه جانب من جوانب هذا الجوهر، او هذا الكنز الذي يقع وراء اربعين باباً مرصوداً لا تنفتح الاّ بقوة الفن.

ارتباطي وايماني بما هو مقوم للانسان، حريته التي لا يمكن ان تهدر، توقه الى العدالة والى الجمال. نشوته بالحس، وصوفيته

بالمطلق. مأساته الكونية المحتومة كانسان. وقدرهالمجيدفي مجابهتها تكاتله الحميم مع رصفائه في المجتمع، وفي الحياة، وفي الكون.. كلها لبّ حقيقته المغلقة.. وكلها موضوعات، اوثيمات العمل الفني والذي لا يمكن ان يفي بها الوفاء الحق الا العمل الفني.

مخارج للخروج من الازمة كأنها الابواب الضيقة في الاساطير القديمة لا بد من ولوجها الى جوهر الكنز المرصود.

لا أكتب القصة الا بعد ان تعيش القصة معي، وتعيش بي فترات متطاولة من الزمن، يحدث فيها هذا التخمر والنضج البطيء الطويل على نار تحتدم احياناً، وتهدأ، وان كانت تظل متوقدة دائماً الى حدّ ان بعض القصص لم اكتبها بالفعل الا بعد نحو عشر سنوات او اكثر من بداية انبثاقها في هذا العالم الداخلي المزدحم الذي تقطنه الشخصيات والاحداث والمواقف والاوضاع المتحققة، في النهاية، في النزر اليسير من الحالات والباقية، في اغلبها، في طور التخلق المستمر. وهو أيضاً ما حدث خلال سنوات ثمانية قطعتها في كتابة بداية واحدة. حتى الآن. ومن ثم، فيبدو ان فترة التخلق الطويلة والكامنة، والتي تدور في الغالب الاعم منها، على مستوى اعلى قليلاً من مستوى اللاوعي، والمرتبطة، بالتأكيد، بجذور لا تطفر الى طبقة الوعي الكامل إلا في لحظة توهج لحظة الخلق ذاتها، هذه الجذور هي التي تحكم كل مقومات القصة في النهاية.. فلا يبقى، بعد ذلك الا الطفيف جداً من ضبط النّغميات اذا شئت.. حيث لم اكد امس الصيغة الاولى بعد كتابتها الا اهون مسّ.

فاذا فرغنا من هذا التوضيح ووصلنا الى صلب المسألة كانت اجابتي، انني أرى في اللغة - وهي الأداة والخامة التي يصوغ منها الكاتب وبها عمله - لها اهمية قصوى.. وليس مناط هذه الاهمية عندي مناطاً شكلياً، ولا خارجياً. فانت تعرف انه لا فكر ولا حس بدون لغة.. وإن اللغة مقوم اساسي من مقومات اللاوعي نفسه بل هي في هذا المستوى تحصل اعماق الرمز وتختلط بمكونات الحياة الاولية. واللغة قد تكون تشكيلية وقد تكون موسيقية، وقد تحتمل هذه الابعاد جميعاً، وتثرى بها. وفي يقيني ان اللغة العربية لغة شديدة الغنى والخصوبة، ومطواعة ومرنة وصارمة الدقة في وقت معاً، وانها في الحقيقة قادرة على ان تكتسب روح العصر، وان تفي بحساسيته، وان تحمل بجلاء مهمة بيان معارج الفكر الحديث مهما بدا فيه من غنى.. ولا اريد ان اقول من تعقيد. وان ما علينا نحن اصحاب اللغة ألا نتهيبها، وألا نهون منها معاً.. فهي لغتنا، وليست لغة متاحف القواميس، ولا محاجر الآثار. ولست اريد ان اقول اننا نحن الكتاب سادتها، كما اننا لسنا خدمها.

العلاقة بيني، على الاقل، وبين اللغة ليست فقط علاقة عشق وتدلّه.. بل هي علاقة تشابك حياتي غنى اطمح ان يكون مثرياً من الجانبين. ان سعيي هو ان انطق بهذه اللغة حساسيتي وفكري في سياق العصر. بل في ما آمل ان يكون سياق المستقبل أيضاً، وان اعطي صوتاً لمن لا صوت لهم، ولما ليس له صوت، عن طريق هذه اللغة التي لا تنفصل عن عضوية الحياة، ولا عن بناء العمل الفني.

في المرحلة الراهنة لا أخفي عليكم ان ثمة نزعات تعصف في نحو نوع من التدمير والنسف للقوالب اللغوية المصطلح عليها، حتى في تيار ما يعرف بالموجات الجديدة.. تدفعني حوافز غامضة وغلابة نحو نوع من التفجير للأبنية التي يتقلص تحتها الفكر والحس محاولاً ان اجد بين انقاض هذه الركامات الجوهر الثمين الحي. وفي روايتي التي اكتبها الآن: «راحة» بدايات التلقي لهذه النزعات التي ارجو ان لا تكون مجرد نزعات، بل احس من جرائها بمسئولية مثقلة وفادحة جنباً الى جنب، مع متعة خارقة. أحس فرضاً والتزاماً الى جانب الانصياع والاستسلام. لموجات مخصبة في هذا الخضمّ من تمازج اللغة بمادة الحياة. فليس الامر مجرد تفتيت وانفلات بقدر ما هو فتح لابواب موصدة تضرب وراءها سيول عارمة تريد ان تندفق، واريد لها ان تندفق وفقاً لقانونها الخاص وحريتها الخاصة.

هب هذه شكلانية؟

لا أظن، بالقطع لا أظن.

- أظن أن الوسائل التكنيكية عندي من منبعين: كيفية تخلّق التجربة القصصية، وموضوع هذه التجربة أي طبيعة مادتها العضوية.

وأظن من السهل عليك ان تسمي هذه الوسائل بأسمائها التكنيكية، وليس مهماً في ظني ان نسميها الا بقدر ما يساعدنا ذلك في تقصي دورها: واظن ان لها دوراً في عملية التوصيل والتواصل التي تتمثل في العمل الفني نفسه، الايحاء بما وراء الاداة التكنيكية من خبرة انفعالية او رؤيا فكرية.

المونولوج الداخلي قد يرتبط بأن وعي الانسان - بذاته وبالاخرين والكون من حوله - هو الحقيقة الاولى الجذرية الوحيدة التي لا شك فيها.

وتداخل الماضي والحاضر والمستقبل قد يعني عندي ان تيار الوعي لا يجري في السياق الزمني المتواضع عليه، بل ان له سياقاً زمنياً لا يعترف بانقضاء الزمن او بأن هناك في المستقبل زمناً لم يحدث بعد، بل لا يعرف هذا السياق أصلاً، وانما الزمن عنده لحظة متجددة أبداً، هو حاضر أبداً - ومن ثم فهو ليس حاضراً (لا بد للمضارع، في منطق الامور، ان يكون له فعل ماض) بل هو خارج السياق المتسلسل، ومن هنا تأتي اللازمنية ويأتي انصهار الزمان والمكان في وحدة حياة لا تعرف لها موقعاً الا التحقق - سواء كانت واقعاً او حلماً.

ولكن الصيغ الحوارية التي تدخل في صلب السرد تؤتي أثراً ضرورياً يحطم هذه الصرامة في صميمية التجربة ويعدل بالضرورة من خصيصتها الحميمة، انها تشير الى الآخر وتؤكده والاخر حقيقة أخرى، بدائية وجذرية لا شك فيها، حقيقة لا تحتاج المعرفة بها الى برهان خارجي. ولكنها أيضاً حقيقة تجري على مستويين: المستوى العميق الجذري، والمستوى الليلي اذا كنت قد

التقطت ماذا أعني بهذا الايماء، والمستوى الاجتماعي اليومي، مستوى حياة السوق والجري وراء اكل العيش. هذا تفسيراً للصيغ الفصحى من ناحية، وللصيغ العامية التي تأتي أحياناً بمادتها الخام، واحياناً مصوغة في قالب عربيّ ارجو ان يكون بيّناً من ناحية أخرى في الحوار الذي يقتحم صلب الخبرة الانفعالية او الفكرية في معظم ما كتبت؟

بالطبع هناك الى جانب ذلك وسائل اخرى كثيرة قد يعييني حصرها، واكتفي بالاشارة الى احداها: أظن ان صور الطبيعة الخارجية عندي تندرج اساساً تحت نوعين متمايزين، متضادين، فهي اما من صميم خبرة داخلية وليست مجرد ديكور جميل او اكسسوار« يساعدعلى تجسيم الجو »، وهي هنا معاناة لا شأن لها بما يحدث او ما يقوم في خارج الذات. وفي مقابل ذلك هناك الطبيعة التي تقف غامضة، منافية للذات، في سياق آخر، في نطاق اجنبي تماماً، وخارجي تماماً، بل لا تكاد تكون هناك علاقة نسبية على الاطلاق بينها وبين الذات، فليس هناك انشقاق كامل وهوة لا جسر عليها، تكاد تنتفي النسبية بينها وبين الذات، من الاساس كان كلا منها يقع في سياق لا صلة له بالثاني، ولو كانت صلة التنافي والتضاد والتخارج. وأترك لك ان تستشف مدى نجاحي او اخفاقي في الايحاء بهذين المستويين من تناول للمشاهد الطبيعية، في قصصي بوسائل الرصد من ناحية، والتداخل من ناحية أخرى.

وسوف يكون علي هنا ان انهي تلك الفكرة، او ذلك المنطق الذي بدأت به، فكرة الاندماج بين الذاتي والموضوع، بين المطلق والنسبي، بين المجرد والحسي، وان اجد لها تطبيقاتها في الصياغة الفنية.

لقد كان العالم الداخلي منذ البداية يفرض نفسه على رؤيتي، ولكني لم افقد لحظة واحدة هذا الحس العاري الاعصاب.. المتوفز بكل لمسة، دع عنك الثقل الرازح، للعالم الخارجي أيضاً.

ومن هنا جاءت محاولتي دائماً في الصياغة الفنية للعثور على تلك الكلمة، ذلك الترابط النغمي، ذلك التكامل البنيوي، التي تفي جميعاً بالشرط « الداخلي- الخارجي »، بمعنى ان الصياغة الآتية من الخارج، التقريرية، القالبية- الباردة تسقط على الفور من يدي ركاماً وانقاضاً، بينما تجذبني الكلمة والصيغة والنظرة التي تتوفر لها صيغة التفاعل. لعلك تلاحظ من الناحية التكنيكية البحتة ان معظم قاموسي يقوم على هذه الصياغات لا من الناحية اللغوية، فحسب، بل من ناحية المعاناة والمعايشة..

هناك عندي فيما أظن سواء في اللغة او في التركيبة الفنية كلها تلك التعددية التي تطمح الى الانصهار في كل متماسك، ليس أحادياً أي منولوجياً، بل متجاوزاً التكاثر ومحوياً ايّاه..

ومن هنا أيضاً تلك الصياغة التي يفقد الزمن التقليدي فيها تعاقبه وتسلسله الآلي لكي يحتفظ بسمتين قد يبدوان نقيضين وان كنت احسها متكاملين: اولاهما تلك الآنية المتحددة بكل خصائص اللحظة الهاربة وقد اوقفت في مسارها، كما لو ان سيولتها قد تجمدت وعرضيتها قد خلدت، محاولة اقتناص ما لا يمكن ان يقتنص في تدفقة الدائم، محاولة اسباغ الثبات على ما هو في جوهره متحرك وعابر، في الوقت نفسه الذي يصبح فيه الزمن خارج الزمنية كلها بحيث يتداخل وينصهر الماضي والمستقبل والحاضر وتضيع الحدود بينها، وتنتقل الخبرة الى مستوى لا يعود فيه لهذا التقسيم المصطلح عليه والمفيد في الحياة اليومية معنى ما، كأنه لم يوجد قط، والطرائق التكنيكية لهذا، اذا تأملتها فيما بعد استطعت ان تردها الى مناهجها المعروفة من منلوج داخلي وتمازج بين الشيء وأثره النفسي، وتحطيم لتراكيب اللغة التقليدية، لكي تلتصق بتلك السيولة المتدفقة الباقية معاً.

ثم اعطاء التجاوبات بين العناصر عن طريق مجموعة الاستعارات والتشبيهات التي لا يوجد فيها تقابل بين عنصري الاستعارة بقدر ما يوجد فيها تمازج وتداغم بين عناصر الكثرة في وحدة كلية.

السماء والبحر- مثلاً- عندي فيما احس ليست ظواهر طبيعية بقدر ما هي رموز كلية ووقائع حسية في الوقت نفسه من خلال هذه العوامل التي تسهم في تشكيل العمل الفني اطمح الى اقامة صلة حميمة بيني وبين قارئي، والواقع انني لا اطمح الى ايجادها بقدر ما اسعى الى استعادتها بعد ان طمستها اولاً لحظات حياة السوق، وثانياً قوالب الاشكال الفنية التي سقطت حيويتها وطزاجتها فلم تعد الا حواجز عوائق.

ان احساسي بارتفاع الحيطان بين النفس وذاتها، بين الذاتي والموضوع بين المجتمع والفرد، وبين الانسان والكون، ينبع عن حسّ مقارن بضرورة تهديمها، عن لوعة دافعة الى التواصل الوثيق الذي يكاد يكون عضوياً بينها جميعاً.

لعلي استشفّ، من خلال ما سبق، ان هناك اولاً نزعة عندي نحو الشمولية او سعياً نحو الحقيقة الكاملة، بحيث لا يجوز الجزئي على العام، وبحيث يرتبط النسبي بالمطلق وبحيث تصبح الطبيعة نفسها، بصخورها وسمائها وبحرها مثلاً، رموزاً في دراما داخلية ويصبح الحس والهاجس والفكرة شخوصاً متموضعة في الخارج أيضاً ونصبا لها حياتها الخارجة عن نطاق سور الحياة الداخلية... أي ان هناك سعياً نحو قهر التحددية، مع التسليم بها، نحو الواحدية المنوعة المتكثرة الجوانب.

فاذا كان هذا هو السعي العام، فان القيم الاساسية عندي كما أشرت من قبل هي قيم الايمان المحرق بحرية الانسان والحس المعذب بالقهر الضاغط لها في وقت معاً. وهناك اللهفة اللاعجة نحو الصدق واستبشاع ما هو زائف واجنبي وغريب عن جوهر الانسان، مع التسليم، في الوقت نفسه، بذلك الشر المركوز في دخيلته.. تلك التفاحة المسمومة التي تحصل معها بذرة العناء. وهناك الحب الجسدي التتري الذي يكاد يشرف من فرط الحسية ذاتها على مشارف صوفية.. حب يتجاوز الجسدي والآني الى المطلق والمجرد.. المشتعلة سماؤه ببياض محترق. وهناك النزعة نحو التواصل الحميم والحس (الداعي الى التمرد) الحس بالغربة

المضروبة على كل منا ضربة قاضية، بحيث لا يفتأ الشوق الى تحطيمها محبوطاً ومتجدداً أيضاً. وهناك ايضاً حس بالجمال حتى الكامن منه وراء القبح والتشويه أو حس بظلم كوني ومجتمعي ونفسي يقع على الانسان.. وبني يكد ويكافح لنفيه واحلال قيمة العدالة محله.

هناك ايضاً حسّ بالوحدة الاساسية التي تربط بين الناس والتفرد الاساسي الذي يفصل بينهم، والصراع الدائب بين الوحشة والنبذ، وبين القربى والتواصل الى حد الاندماج.

هذه، في ما أظن البؤر الاساسية المشعة في عرض نسيج العمل الذي اقوم به. والتي تفرض بدورها لغة متسقة معها من الناحية الشكلية، ومحتوى يسعى دائماً الى النهوض بها.. وجهداً واعياً معاً، لتحقيق نقطة الانصهار الكاملة بينها جميعاً.

هل هذا التصور يسقط الصراع بين الطبقات، المتغاير بين ما يسمى بالفئات او الجماعات الانسانية؟ لا، يسقطه، فلا اظن انه من الممكن القول باسقاطه. وليس عندي تجريد، او تعميم «للانسان» أظن ذلك اغراقاً في التّبسيطية.

أريد مع ذلك ان اقول اذن ان الحبوط وضع يمر الانسان- كل انسان- بحكم وجوده الانساني ذاته، هل اقول بحكم وجوده الطبقي أيضاً؟ بحكم ما يحمل من نزوعات محرقة نحو الاشباع لا تتحقق بكاملها ابداً، بحكم ما في داخله من حسّ بالقدرة اللانهائية- نازعة مندفعة نحو موضوعات حسية وعضوية وثقافية، ماذا أقول؟ بالتعبير الدارج القبس أقول مادية وروحية معاً، ومن غير اشارة الى وضع فلسفي معين لا عدار لها- وبحكم القهر الضروري الذي تمثله محدودية القدرة الفعلية، وحواجز العالم العضوي والفيزيقي والاجتماعي والكوني، الحواجز التي هي عندي موضوعات للتجاوز في الوقت نفسه. والانسان، منذ اول يوم في تخلقه، يتعلم رغماً عنه هذا الدرس الاول المرير: درس التكيف مع الواقع، درس الكبت كما يسميه علم النفس التحليلي، او الحبوط كما تسميه. ومع ذلك فان هذه الخبرة الاساسية في الحياة الانسانية- كل حياة انسانية- تقترن دائماً بانكار عميق فطري لها في دخيلة الانسان، كل انسان. وكلنا ينكر محدوديته، وعجزه، وموته، ونحن- جميعاً- في حلم ليلنا الانساني- نفعل المستحيل، وخالدون، وشهواتنا متحققة لا يقف امامها شيء، وحبنا كامل لا حد له.

اما الفن فليس فرارا من واقعنا- كالحلم ربما- بل سيطرة عليه، وتكيف معه، وحافز على التغلب عليه، لانه ليس كالحلم نشاطاً فردياً معزولاً، بل تواصل ومشاركة بين وعيين، بل منطقة جمعية من الوعي الانساني، من المعرفة الانسانية.

وهل احتاج بعد ذلك ان اقول ان تناول اوضاع الحبوط- في حدّ ذاته- انما ينطوي على تجاوز هذا الحبوط، والتغلب عليه وتأكيد التحقق؟ اما الفرار من الحبوط بتصوير التفاؤل الساذج، و«النماذج القادرة الفعالة»، فهو استسلام مرضي- يشبه الحيل التي يلجأ اليها مرضى العصاب النفسي- استسلام عصابي ينطوي على انكار الحقيقة. وعقاب هذا الانكار محتوى، نعرفه في فواجع المرضى العصابيين. وأظن ان في التأكيد على النماذج القادرة الفعالة الايجابية، عقاباً يتمثل في اهدار حقيقة الانسان، وامتهان كيانه، عقاباً يؤدي في النهاية الى السجون والمعتقلات التي تغص بضحايا النماذج القادرة الفعالة، ضحايا القهر الاجتماعي والسياسي اولئك الذين يريدون ان يؤكدوا ان لكل انسان حقاً جوهرياً في ان يقول لا، وان يحلم كما يشاء، وان يقول للآخرين انه يحلم «ويروي لهم حلمه الحميم الخاص. فيجدون فيه حلمهم الخاص أيضاً وتحقق لنا بذلك هذه المعرفة الخاصة التي هي عندي في رسالة الفن.

لست اعرف في الآتي ما هي الايديولوجيا التي تلهم هذا الكلام، وهذا في النهاية غير مهم بالنسبة لي ذاتياً، المهم في ظني هو في النهاية النص الروائي، وما يحمله بحكم بنيته نفسها. هنا أيضاً يأتي مجال «مجال المغالطة القصدية» ليس المهم ما يقوله أيّ منّا نحن جنس الروائيين في خارج عمله، بل ما يفعله- لماذا، واستخدم فعل الفعل هنا؟- في داخل هذا العمل.

ولا اريد هنا ان يتأتى انطباع ما انني اخوض في غنائية ذاتية. اتمنى ان يكون في ما اقول نوع من المشاركة في الهموم الثقافية التي يحمل مسئوليتها الروائيون ونقاد الرواية والمشتغلون بعامة بالعمل العام.

الفن، في ظني، خبرة من اعمق خبرات المعرفة الكلية ومشاركة حميمة وعلى مستوى الحقيقة الانسانية الشاملة، وتحقق فريد لطاقات الانسان التي لا تكاد تحد في شتى الميادين ولكن وسائله وأدواته ما زالت وستظل سراً، مهما حاولنا ونجحنا، في اقتفاء وقع اقدامه السحرية. وفي ظني ان المعايير الخلقية الجمالية التي تحدثت عنها من قبل، هي مقومات الهيكل الذي ينبني عليه العمل الفني، ويبقى لحساسية الفنان ولتلك الخاصية العجيبة التي نسميها احياناً الالهام، تجسيد الكائن الحي الباهر الذي يعتمد ذلك الهيكل. ولست اريد ان احدد هذه المعايير الخلقية الجمالية تحديداً دقيقاً، الاحاطة الجامعة المانعة هنا شيء يفوق طاقتي، ولكنها على أي حال معايير تكاد تكون بيولوجية أيضاً: التناغم والتنافر، القصد والاستغناء عن الحشو، تطابق العضو والوظيفة، تكامل الجزء والكل، واتساق الكل مع البيئة، انتفاء الزور والخبث والترهل. الا ترى معي اشتباك المعايير الخلقية الجمالية البيولوجية معاً في هذا الكيان؟ الا ترى معي ان هذه القيم الواسطة الضرورية لتحقيق غايات فردية واجتماعية متكاملة، تندرج في بنية العلاقات الاشتراكية؟ لست اقصد ان تكون الممارسة الفنية، بهذا التصور، نوعاً من التدريب على الاشتراكية، كما كان المزعوم ان في دراسة الرياضيات او اللغة اليونانية نوعاً من التدريب على تكوين ملكة التفكير العقلي المنطقي الواضح المحكم. ليس هذا هو الموضوع. بل لعل قصدي ان يكون العمل الفني هنا اسهاماً في ارساء وتشكيل القيم التي تصوغ العلاقات الاشتراكية.

واضح اذن انني لست اهدف، بداءة، الى وضع قصة محكمة

الصنع، فيها حبكة ومفارقة ومفاجأة، ولحظة تنوير كما يقال، او قصة مسلية، او مثيرة للتفكير، او تدعو الى موقف اجتماعي معين، او «تصور» فقط واقعاً معيناً وتشير فقط الى تعبير اجتماعي معين، او حتى قصة تتخذ لنفسها فقط موقفاً فلسفياً او ميتافيزيقيا معيناً. لست اهدف الى ذلك فقط، بل اطمح وبالطموح اعيش، الى ان يكون في قصتي شيء من ذلك كله، وشيء آخر يغير ذلك كله ويحوله الى مستوى آخر، او الى جوهر آخر مغاير تماماً، قد يعتمد على هذه العناصر، او يشتمل عليها، بشكل ما، لكنه ينطلق منها الى هدف آخر (قد يبلغه او لا يبلغه، فلنسلم بامكانية التحقق او القصور، ليس هذا موضوعنا) ولعل هذا الهدف الاخر هو ان يشاركني القارىء مشاركة حميمة، تتجاوز «الانا» الى تواصل جمعي ما على مستوى التجربة او الخبرة الفنية- مشاركة في معرفة من نوع خاص، معرفة للنفس وللعالم معاً، منصهرة في وحدة تجمع بين النسق والتناقض معاً، وتلتئم فيها الشتات. اهدف ان نذهب معاً- أنا وقارئي- نمضي على هذا الطريق الذي تتلمس فيه حقيقة مشتركة بيننا، قديمة وجديدة معاً: قديمة لانها جانب من حقيقتنا الانسانية، وجديدة لاننا نراها لاول مرة.

هناك عندي اذن افتراض- او ايمان- لا استطيع أبداً أن انكره: ان هناك حقيقية انسانية، ليست مجردة، ليست معممة تشتمل على الوضع الطبقي الذي هو مقوم من مقوماتها ولكنها تتجاوزه.

هل هذه النزعة الانسانية او الانسية التقليدية؟ هل هذه هي «حقيقة» البورجوازية الصغيرة كما يتجه التصنيف الشائع؟ هل هذه «حقيقة» يمليها تصور مثالي بالمعنى الفلسفي؟ لا اعتقد.. أظنها حقيقة الانسانية المجددة والمتفاعلة في مسيرتها التاريخية من طبقة الى طبقة.

مرة اخرى لا أدري.. ولا ارجو ان يكون ذلك صحيحاً.. لو وضعت نفسي داخل هذه الاشكالية لما امكن الخروج منها ابداً ومرة اخرى لا اقصد بالانا هنا ذاتاً متفردة رومانسية.. ربما كان الحل الدقيق الذي اعرفه هو العمل الفني نفسه، من داخله.

الكونية التي طالما حبست الانسان؟ عصر تحتشد فيه الملايين من البشر وتؤكد ذاتها في موجات كاسحة، وتقهر فيه في الوقت نفسه ارادة الملايين من الافراد، ويصبحون بالفعل فتاتاً مسحوقاً- ذلك كله يجري على مستويات أخرى لا شأن لها مباشرة بالفن او العمل القصصي، مستويات تكنولوجية، وسياسية، واجتماعية وعسكرية تتزلزل فيها الارض كل يوم زلزلات لا تحسب حساباً- بأي حال- لقصة قصيرة، أو طويلة، مهما كانت مكتوبة بلغة قوية، مهما كانت قوتها وجمالها؟ والعربية اليوم لغة قوية أو ان صح التعبير لست اقول انني نفضت يدي امام هذا التناقض، أقول فقط انه تناقض يحبط ارادتي احياناً عن انجاز العمل الفني، فلا اكتب الا وانا مدفوع دفعاً، ومغمض عيني عما اهدف اليه او لا اهدف اليه. ما قيمة ما اهدف اليه وما لا اهدف اليه؟ ذلك كله يسفر عن وجهه المروع، ما دمت قد اعرف انني لا اكتب شيئاً لاسلي او اعلم، او ادعو، او أصور واحلم حلماً. بل ما دمت لا استطيع، حتى لو اردت، ان افعل ذلك. كأنني اريد للفن ان يفعل شيئاً اعظم من ذلك كله بكثير، ان يقوم بدور النبوة او الفلسفة بمعناها القديم الشامل المستضيء- وكأنني، في هذا القرن العشرين، في هذه الرقعة الخلفية من عالم القرن العشرين، أقول لنفسي امكن هذا؟ واكتب بين الحين والحين كأنني اجبت على السؤال بالايجاب، دون ان ادري في اعماق نفسي هل الردّ فعلاً بالايجاب او بالنفي.

ما يزال يراودني التساؤل المقلق والخطير وغير المبرر عقلياً بأنه ربما لم يكن للفن دور فعال في الحياة الانسانية وبالقطع تثور على الفور كل الحجج المنطقية التي تدحض هذا السؤال والتي اعرفها حق المعرفة، ربما كان في ازدياد حدة هذا التساؤل في فترة من الفترات، ما ادى عندي الى نوع من الزمت والكف عن الكتابة، أضف اليه ان تعقد الحياة المجتمعية وشدة وطأتها قد اسهمت أيضاً في هذا الكف، ودعك من نوع من الحيرة بين قرار بالاختيار بين العمل المباشر، والكتابة التي هي بمعنى من المعاني عمل غير مباشر وفي مستوى آخر يمكن ان تعد عملاً مباشراً.. أهي حيرة انتهت الى اختيار الكتابة في نهاية الامر. ولم تزل الاسباب التي منعتني عن الكتابة قائمة ولكني قد اخترت. وهو نوع من الاختيار غير المبرر عقلياً، هو قفزة في الظلام حقيقة، وكل ما اكتبه يبدو لي بلا قيمة حقيقية هناك فارق شاسع بين ما اكتبه وبين ما اريد ان اقوله. من الاشياء التي اريد ان اقولها، وتغلبني على أمري، ذلك التجسيد عندي لنزعة غير مبررة نحو المطلق، ما أريده هو «المطلق» في العدل، المطلق في الحب، المطلق في الكمال، المطلق في الحرية، أي ان ما اريده هو المستحيل ودون المستحيل، يوجد الممكن. الممكن بطبيعته هو الجزئي والقاصر، وبالتالي المحبط المرير وبالتالي الضروري والمحتوم، في كل عمل اقوم به، سواء في حياتي او في الفن، يخيل إلي انني اثب نحو المطلق فتدق عنقي في قبضة الممكن، في كل مرة ولكن هناك نوعاً فيما يمكن ان نسميه (القهر) او الحواذ يدفعني الى هذه الوثبة المتكررة، مدركاً بيأس مسبق، وبأمل غير منطقي معاً ان صدمة السقوط سوف تأتي. ربما كان هذا الوضع ما يفسر جانباً من الامتناع عن الكتابة والنشر، ثم الاقبال عليها، في دورة متكررة ارجو ان تنقطع، وأعرف انها لن تنقطع.

لماذا اكتب اذن؟ اكتب لانني لا اعرف لماذا اكتب..! أمدفوعاً الى الكتابة بقوة قاهرة.. اعرف انني لا املك الا الكتابة سلاحاً للتغيير.. تغيير الذات وتغيير الآخر.. الى افضل ربما.. او اجمل.. او ادفأ في برد الوحشة والوحدة.. او اروح في حرّ العنف والاختناق.. لانني اتمنى أن اقتحم مقدار خطوة في ساحة الحقيقة التي لا حدود لها.. لانني اتمنى أن ترتفع معرفتي ومعرفتكم بالذات وبالعالم ولو كان ذلك مقدار قامة.. لانني لا أطيق ان

اتحمل في صمت جمال العالم واهواله.. فلا بد ان اقول.. لانني أريد أيضاً ان تظل العدالة حلماً حياً لا يموت وصرخة لا تطفئها قبضة القهر.. لانني اتمنى ان يكون في كلمة من تلك التي اكتب- او في مجمل ما اكتب- شيء يدفع ولو قارئا واحدا ان يرفع رأسه في كبرياء وان يحس معي ان العالم.. في النهاية.. ليس ارض الخراب واللامعنى.. لان الكتابة حديث حميم اتكلم به الى اناس اعرفهم ولا اعرفهم ولن يتاح لي قط ان اتكلم اليهم، وانا اريدهم- هؤلاء المجهولون الذين اعرفهم كما لا اعرف اقرب الاقرباء- ان يسمعوني وأن نسمع معاً عن ذات انفسنا معاً..

أكتب لانني اتمنى ان ارى هذه الارض العريقة التي اعيش فيها وقد انجابت عنها تماماً غاشية الظلم والظلام.. هل هذا ممكن؟ الكتابة هي الاجابة الوحيدة التي اعرفها، حتى ولو لم تكن اجابة..

مدفوعاً بقوة الحب- يا للكلمة التي شبعت ابتذالا وما زالت نضارتها لا تذوى!

مدفوعاً بأن الشر عمود صلب مركوز في ارض الناس جميعاً فيجب ان تنطفىء من تحته مواقد البخور ومحارق العبادة الوثنية! وحتى لو ظل الى الابد قائماً.. فليبق اذن في أرض مقفرة لا ترتوي على الاقل بدموع التماسيح..!

لان العالم لغز.. والمرأة لغز.. والانسان اخي لغز.. والكون كله.. لغز احمله في حبة قلبي وهو نواة صلبة في جسد العقل القلق الذي لا يصل الى حلّ.. وانا بالكتابة مدفوع الى مناوشة هذه النواة اهاجمها من كل جانب.. بلا امل في ان اكسرها.. ولا يأس من ان احمل عليها مرة بعد المرة حتى وان قصرت يدي وكل سلاحي.. وسلاحي هو عنف الحب ورقته.. اتمنى ان اكتب هذا.. ولهذا اكتب..!

ادوار الخراط


## دار الآداب تقدم

## مؤلفات كولن ولسون

- ضياع في سوهو
  **ترجمة يوسف شرورو وعمر يمق**
- المعقول واللامعقول في الادب الحديث
  **ترجمة أنيس زكي حسن**
- أصول الدافع الجنسي
  **ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب**
- اللامنتمي
  **ترجمة أنيس زكي حسن**
- ما بعد اللامنتمي
  **ترجمة يوسف شرورو وسمير كتاب**
- القفص الزجاجي
  **ترجمة سامي خشبة**
- طقوس في الظلام
  **ترجمة فاروق محمد يوسف**
- سقوط الحضارة
  **ترجمة أنيس زكي حسن**
- رحلة نحو البداية
  **ترجمة سامي خشبة**
- الشعر والصوفية
  **ترجمة عمر الديراوي**
- الحالم
  **ترجمة سامي خشبة**
- اله المتاهة
  **ترجمة سامي خشبة**
- الانسان وقواه الخفية
  **ترجمة سامي خشبة**
- الشك
  **ترجمة يوسف شرورو**